التحليل النفسي لشخصية دعبل الخزاعي
من خلال حياته وأشعاره

طالب الدكتوراه عارف داودي
جامعة آزاد الإسلامية ـ فرع آبادان ـ قسم اللغة العربية وآدابها ـ
جمهورية ايران الإسلامية
Aref1350d@gmail.com
الأستاذ المساعد الدكتور عبدالكريم البوغبيش (الكاتب المسؤول)
جامعة آزاد الاسلامية ـ فرع ابادان، آبادان ـ قسم اللغة العربية وآدابها ـ
جمهورية ايران الإسلامية
Dr.karim5151@gmail.com

Psychoanalysis of personality of De`bel AL-Khozaee through his poem and life

Aref Davoodi
Department of Arabic Language, Abadan Branch,
Islamic Azad University, Abadan, Iran
Abdolkarim Alboghobeish
Department of Arabic Language, Abadan Branch,
Islamic Azad University, Abadan ,Iran

الملخص:-

إستطاع علم النفس أن يغور في كنف اللغة لكي يظهر علم اللغة النفسي؛ حيث جعل من الظاهرة النفسية بكل أبعادها موضعاً لدراسة، وتناول اللغة بوصفها ظاهرة نفسية لها صلات مرتبطة مع تلك العوالم الداخلية للنفس البشرية. وقد أثّرت الذات المتبعة في أدب أولئك الشّعراء الذين أبصروا بصدق المجتمع، وأصّروا علي أن يفصحوا عن كل ما يكمن فيه، وكان دعبل الخزاعي من اللذين جاهدوا جهاداً صادقاً ضدّ المجتمع اللاإنساني مع أبناء دينه ومذهبه وابناء جلدته؛ لهذا نري روح التسامي وآليات الدفاع وعقدة النقص، والإغتراب، والتشاؤم بمزيج من العاطفة؛ تؤثّر بشاعرنا حيث يلتجيء إلى الكلام اللاذع ليطرد كل من كان حوله. وفي شعر شاعرنا دعبل الخزاعي الذي كان يعيش في عصر قد ظُلِم به آل المصطفى ﷺ يأخذ شعره منحيين مختلفين: المنحي الأول: ما يتصل بالقضايا الإجتماعية والإيديولوجية وفي عصره اصطبغ موضوع حق آل محمّد ﷺ بصبغة جديدة، وهي المطالبة بالمكانة الإجتماعية للأئمة الأطهار، والسعي وراء تحقيق حقوقهم التي ضاعت تحت الضغوط السّياسية والسّنن الموروثة. والمنحي الثاني: ما يتصل بهجاء أولئك الذين ظلموا في حياتهم وغدروا بما يخصهم. يحاول هذا المقال ضمن تحليل بعض أشعار دعبل الخزاعي فيما يرتبط بالموضوع أن يستنبط ويكشف عن لوعاته النفسية وعقده المكبوته بالوصف والتحليل.

الكلمات الرئيسية: دعبل – الخزاعي – النقد – النفسي – آلية – الدفاع.

Abstract:-

Psychology could explore the world of language and lead to psycholinguistics. Psychologists used psycho topics of studies and investigated language as psycho aspect. They indicated that language is related to psycho. This aspect had its own effect on the poet and they preferred to investigate it. One of the poets is Doubol Khozaee who did his best to act against illegality in the society. Thus, we see that he intended to work against lacks, pessimistic, and alienation and acted for highness and positive aspects that related to psycho of people. We could see that his poem was to the point in these regards. He was living in a period that included oppression to Alo-Almostafa. His poem included two directions: first is related to social and ideological aspects. He stated his poem in relation to Alo-Almostafa with new style including the demand for social position of Alo-Almostafa and ask for their lost rights due to political issues and inherent traditions. Second direction is to epigram of those who oppressed Alo -Almostafa. This article intends to analyze some poem of Doubol Khozaee to report on the above aspects.

Keywords: De`bel AL- Khozaee, critics, Psycho, defense items.

المقدمة:

مجال علم النفس كيفية إكتساب اللغة وتعلمها ودراسة السبل التي بها يتم التواصل البشري عن طريق هذه اللغة. (أحمد مختار، ١٩٨٨: ١٠) فالتعبير النفسي لدي الإنسان يقوم علي أساس نزعات نفسية تختلف من فرد إلى آخر، كما أن السلوك اللفظي يختلف باختلاف نظرة الأفراد للأشياء والمفاهيم واستجابة الفرد تكون بالنسبة للمعاني التي يراها هو مناسبة لهذا المفهوم أو ذاك. مكانة دعبل في المجتمع حيث كان شاعراً مفلقاً ومن أسرة معروفة بالشعر وهي آل رزين وهم من بيوتات العرب المعروفة بالعلم والفضل والأدب، فقد كان أبوه شاعراً وكذلك عمه عبدالله بن رزين و وأخوة دعبل كذلك من الشعراء. وكان شعره صورا حية عما كان يلاقيه من آلام ونكبات وكانت هذه الصور الناطقة من أكبر الأدلة علي جرأته وشدته وصراحته، فعالج هذه القضايا بالشعر وهجا من كان يظلم الناس ومن سلب حق آل المصطفىﷺ في العصر العباسي وكما نعلم إنّ العصر العباسي من أزهي عصور الأدب وأخصب المراحل في تاريخه مما أورثه من الآثار والنتائج التي لم يعهدها العرب من قبل. وفي هذا المقال سوف نكشف عن العقد النفسية التي ساندت الشاعر للوصول إلى أغراضه الشعرية. وكثيراً ما وصفوه بسليط اللسان، مولعاً بالقذف والسب والشتم، فكان الدافع النفسي لهذا الأمر هي آلية الدفاع وانتشار عقيدته التي باتت تنسي شيئاً فشيئاً آنذاك.

تعريف المسألة:

إتفق العلماء علي الصلة بين نفسية الشاعر مع الخلق والإبداع كما قام فرويد بدراسة هذه الحالات دون العناية بجماليات النص واللفظية والمعنوية. هذا ما سُمّيَ اليوم بالنقد النفسي. والنقد النفسي في الأدب له أربعة أوجه: ((١- دراسة المؤلف أو الشاعر دراسة نفسية عن طريق مؤلفاته وأعماله٢- دراسة عملية خلق الأثر دراسة نفسية في مراحل تطويره٣- دراسة نفسية لتأثير الأعمال الأدبية أو الأدب في القرّاء٤- التحليل النفسي للآثار وللأشخاص والقضايا المقترحة في العمل الأدبي)) (أحمديان، ١٣٩٣: ٨٠). ووفقاً لهذا المنهج وهذه المدرسة النقدية هناك علاقة نفسية بين العمل الأدبي وصاحبه. ((بعبارة أخرى يمكن تحليل الشعر تحليلاً نفسياً ومن ثمّ يمكن العثور علي نتائج عامة حول حالات الشاعر الذهنية. إضافة إلى هذا نستطيع إدراك مسائل غير قليلة حول المؤلف أو الشاعر من خلال

آثاره وسيرته، منها: صراعاته النفسية، وحرمانه، وتجاربه المرّة، وتعاسته ومسراته)) (أحمديان، ١٣٩٣: ٨٠). بما أنّ مولد الشعر هو خواطر الشاعر وبيئته وتأثره بهذه العلاقات سنحلّل شخصية دعبل الخزاعي تحليلاً نفسياً ونحاول إدراك نفسيات الشاعر عن طريق مطالعة آثاره وسيرة حياته. وقد نختار من نظريات فرويد الذي كان من أكثر علماء النفس تاثيرا في العالم نظريتي: التسامي وآلية الدفاع والتشاؤم، ومن نظريات آدلر عقدة النقص، وإريك فروم حول البيئة الإجتماعية الذي عاش بها الشاعر. وإذا تقبلنا هذا القول أن الشخصية ((هي أساليب الإنسان وطرقه الخاصة في الفكر {في الفكر} والتصرف))(دارابي، ١٣٨٤: ٨١) فيظهر لنا ضرورة التحليل النفسي كأداة لمعرفة شخصية دعبل الخزاعي وضرورة فهم أعمق لشعره النابع من أفكاره.

سابقة البحث:

هناك كتب ومقالات كثيرة كتبت حول أشعار دعبل الخزاعي حيث شرحت مواقفه السياسية والمذهبية وهجوه اللاذع، ونستطيع أن نذكر من تلك المقالات: ١- الموسوي، نجم عبدالله، وأحمد صبيح الأنصاري: (٢٠٠٦) غرض الهجاء في شعر دعبل بن علي الخزاعي (دراسة موضوعية فنية) من كلية التربية- جامعة ميسان. ٢- مختاري، قاسم، وإبراهيم إبراهيمي: ١٣٩٢: بينامتنيت قرآني وروايي در شعر دعبل خزاعي، دفتر همايش بينامتنيت.٣- معروف، يحيي: شخصية دعبل الخُزاعي من خلال التناقضات، إضاءات نقدية (فصلية محكمة) السنة الثانية -العدد الثامن- شتاء ١٣٩١ش/ كانون الأول٢٠١٢ صص١٣٣-١٤٧. ومن الكتب الرئيسة في هذا المجال: ١- التميمي، قحطان رشيد: إتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري؛ دار المسيرة، ط الأولى، (ب ت) بيروت، لبنان ٢- كنعان، جرجس: دعبل الخزاعي، الطبعة الثانية ١٩٥٠ النجف الأشرف/ العراق.٥- أظهري، محبوبه، وسهيلا صلاحي مقدم: **تحليل روان كاوانه شخصيت‌هاي رمان سمفوني مردگان براساس آموزه‌هاي زيگموند فرويد وشاگردانش، مجلة ادبيات پارسي معاصر، پژوهشگاه علوم انساني ومطالعات فرهنگي**، السنة الثانية، العدد الثاني، خريف وشتاء ١٣٩١، ص١-١٧. ٦- أحمديان، حميد، ومحمد مصلح صميمي، ومريم اسماعيلي: نقد روانشناختي بدبيني أبو العلاء معري، مجلة الجمعية العالمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، سنة ١٣٩٣ش عدد٣٠.

أهمية البحث:

لا يمكن لأحد أن ينكر ولاء دعبل الخزاعي لآل المصطفى ﷺ وكان ذا عقيدة مشبعة روحه بها وأنه شغل نفسه في الدفاع عنها حيث أن جل أشعاره تتصل بعقيدته وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً، حيث نري أشعاره إمّا في مدح أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام أو في هجاء وذم من أظلم بحق محمد وآل بيته؛ فقد عاش دعبل حتى ضحك المشيب برأسه وبلغ من العمر ما يقارب مائة عام مؤمناً بهذه العقيدة مدافعاً عنها في اللسان والأفعال، كثير الإحتجاج لها، يكافح ويناضل من أجلها، يتحدى أشد الناس إذا استدعته عقيدته وكان صبوراً لشرح وإيضاح عقيدته وما هو ناوٍ إليه. لذلك ساعده ما كان يتمتع به من جرأة وصدق وشجاعة إلى جانب قوة الإيمان، وهذا يكفي لتبرز أهمية هذا البحث وسنحاول في هذا البحث الكشف عن العقد النفسية التي أدّت بالشاعر إلى انفجار غريزة الشعر فيه، وأدّت إلى الإفصاح عن عقيدته وسنشرح إن شاء الله تعالي من خلال هذا المقال أسباب إنكماش الشاعر وسيتبين للقارئ العزيز أن هجو الشاعر لم يكن للتسلية بل كان هذا النمط من الشعر دفاعاً عن نفسه وعن مذهبه ومعتقداته الدينية.

أهداف البحث:

حاول هذا المقال الكشف عن الدوافع النفسية التي أدّت إلى ظهور خلجاته النفسية والظاهرة الشعرية عند شاعرنا دعبل الخزاعي سيما التسآمي وآلية الدفاع وعقدة النقص، والإغتراب والشكوى، ومن خلال هذا المقال سوف يعرف القارئ ما هي الأسباب التي جعلت من شاعرنا، شاعرا هجّاء، وسليط اللسان كما عرّفته بعض الكتُب-سيما الاصفهاني في كتاب الأغاني - كيف استطاع أن يخفي آلامه وتوجعاته في الحياة الروتينية ولم يستطع إخفاء هذه الإضطرابات في أشعاره؟ وأيضاً سنشرح مدي تشاؤمه في علاقاته مع الناس. وهدفنا الكلي لهذا المقال هو أن نجيب علي هذا السؤال: ما هي الدوافع النفسية الرئيسة التي دفعت دعبل الخزاعي إلى أحضان الوحدة، والهجرة، والتسآمي والإغتراب، والشكوى من كل شيء؟ ومن ثمّ سوف يتعرف القارئ علي تعريف التسآمي وشواهده، ومن ثمّ آلية الدفاع وشواهده، والتشاؤم والإغتراب والشكوى والحنين وشواهدهما.

فرضية البحث:

الكبت والحرمان لأبناء الشيعة في العصر العباسي جعل منهم أناساً غضوبين لا يستطيعون كتمان غضبهم، وكانوا يجادلون و يكافحون في سبيل العقيدة بأشعارهم، خطاباتهم و قصار كلامهم كلٌ من اراد المسّ بمعتقداتهم الدينية والمذهبية. ومن أولئك الملتزمين والمخلصين في طريق الدفاع عن الحق هو دعبل بن علي الخزاعي حيث سار في مسيرة كانت من المستحيل أن يموت موتة طبيعية؛ كما قال أبو خالد الخزاعي الأسلمي في محاورته مع دعبل الخزاعي: والله هذا مقال من لا يموت حتف أنفه (الموسوي، ٢٠٠٥: ٨) ولكن أراده الله أن يكون حياً ليدافع عن حقانية أهل البيت عليهم السلام وأن يناضل في جبهة الكلمة. وفرضية البحث: فقد التجأ دعبل الخزاعي إلى الهجاء اللاذع ليطرد كل من كان حوله بسبب التشاؤم الحاد بالنسبة للمجتمع؛ وكان يلتجئ إلى آلية الدفاع حيث تسمّي التسآمي في علم النفس ليجعل لنفسه حصناً آمناً وأن يظهر ولاءه لأهل البيت.

سؤال البحث:

سنحاول في هذا البحث الاجابة علي الاسئلة التالية:

- ما هي آلية دعبل الخزاعي النفسية للدفاع عن نفسه، ومذهبه، وعقيدته؟
- ما هي حصيلة التشاؤم والكبت الحاصل من المجتمع السلطوي العباسي؟

دعبل الخزاعي:

نسبه وكنيته: هو دعبل بن علي بن رزين بن سليمان بن تميم وهو يماني من خزاعة أصلاً وكنيته أبو علي. أما إسمه فقد أختلف المؤرخون فيه فذكروا له ثلاثة أسماء: الحسن، وعبدالرحمن، ومحمد مع العلم أنه لم يعرف بهذه الأسماء وعرف بلقبه (دعبل)، والدعبل: كزبرج، بيض الضفادع والناقة القوية والشارف، وكذلك من معانيها الناقة المسّنة والبعير المسن ويقال أيضاً للشيء القديم. ولد دعبل بن علي الخزاعي في سنة ١٤٨هـ ومكان ولادته لم يحدد بالضبط لكنه كوفي في الأصل نشأ وتربي وترعرع في الكوفة، وفيها قضي أيامه وسني حياته، ويقال أن دعبلاً تتلمذ علي يد مسلم بن الوليد الشاعر المعروف بصريع الغواني المتوفي سنة ٢٠٨هـ ويذكر المؤرخون أن مسلماً هو الذي شجع دعبلاً علي قول الشعر.(الدجيلي، ١٤٠٩: ١١). كان دعبل شديد العناية بصياغته ولايزال يغوص علي المعاني

من حين إلى حين فقد أحتوي شعره علي عناصر القوة والإبداع والروعة، فبرع دعبل في تصوير الأحداث التي عاشها والتي شاهدها تصويراً رائعاً فكانت مرآة تعكس حياة المجتمع وأفكاره. ((في شعر دعبل صور حية عما كان يلاقيه من آلام ونكبات وكانت هذه الصور الناطقة من أكبر الأدلة علي جرأته وشدته وصراحته وقال عنه المأمون: لله دره ماأغوصه، وأنصفه، وأوصفه)).(الموسوي، ٢٠٠٦: ٦). وعاصر مجموعة من الخلفاء هم: ١- هارون الرشيد: (١٧٠-١٩٣)، ٢- عبدالله المأمون(١٩٨-٢١٨)، ٣- محمد المعتصم(٢١٨- ٢٢٧)، ٤- هارون الواثق(٢٢٧-٢٣٢)٥- جعفر المتوكل(٢٣٢-٢٤٧). والجدير بالذكر أن دعبلاً كان كثير التنقل والسفر والترحال فقد سافر من الكوفة إلى بغداد في أيام الرشيد بعد أن طلب الرشيد حضوره وتواري دعبل عن المعتصم أكثر أيام حياته وقد هجا دعبل الخلفاء الذين عاصرهم.(الموسوي، ٢٠٠٥: ٤-٥).

البيئة الإجتماعية عامل في تكوين شخصية دعبل والدافع الأساسي للشعر:

بعض العوامل في تكوين شخصية دعبل الخزاعي هي عوامل وراثية وبيئية حيث يعتقد بأنً شخصية الإنسان تتأثّر بالبيئة الإجتماعية، ((كان اريك فروم يعتقد أن الإنسان يتأثر بالحوادث التاريخية الواسعة لاسيما المجتمع الذي يبني هذه الشخصية ويذهب إلى أن هذه الأدوار أثّرت في تكوين أنواع الشّخصيات وطبائعها المختلفة والمتناسقة مع متطلبات ذلك العصر))(أحمديان، ١٣٩٣: ٨١)فبداية ظهور الدولة العباسية يعتبر حدثاً مهماً في تطور المجتمع العربي الإسلامي نحو الحياة المدنية وحياة الحضارة والترف وتدرجه أكثر فأكثر، فأخذ النظام القبلي الذي كان أساس الحياة العربية بالإضمحلال وبدأ العرب يبتعدون شيئاً فشيئاً عن القيم والعادات الإجتماعية والتقاليد العربية القبلية بسبب انجرافهم في المظاهر المادية وما تحويه من نعيم وترف، فأصبح المال يحتكم في القيم العامة، ولهذا اندفع الناس وراء المال يتشبثون إليه بمختلف الوسائل لا يمنعهم دين ولا يردعهم رادع، ((أما من ناحية تركيبة المجتمع العربي آنذاك فإنّ المجتمع العباسي أنقسم إلى ثلاث طبقات، الطبقة الخاصة وتشمل الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة والولاة وكبار رجال الدولة، والطبقة المتوسطة ينسلك فيها رجال العلم والأدب والمغنون والتجار وموظفو الدولة، والطبقة العامة وهي الطبقة الواسعة والكبيرة والتي ينضوي فيها الفلاحون، الحرفيون، المعوزون والمحرومون. فالطبقة الحاكمة تمتعت بالحياة الناعمة الهادئة وملذّات الحياة الحضارية الجديدة، فمال

هؤلاء المترفون إلى اقتناء كل ما يكمل سيادتهم وحياتهم الناعمة من العبيد والجواري والقصور))(الموسوي، ٢٠٠٥: ١٥). كل هذه الأمور أدّت إلى اختلال التوازن الإجتماعي وإنفاق أموال الدولة علي ملذّات الخلفاء والأمراء علي أتباعهم، الأمر الذي أدّي إلى زيادة الفوارق الطبقية واتّساع أحوال البؤس والفقر والحرمان. هذه باختصار نبذة موجزة عن أحوال المجتمع العباسي الذي عاش فيه شاعرنا دعبل بن علي الخزاعي إذ نشأ وشبّ وترعرع في الكوفة التي تعتبر من أهم الحواضر العربية آنذاك والتي تضم في منتدياتها ومجتمعها رجال العلم في الحديث والفقه واللغة وكذلك كانت تضم حتى ذوي الميول المتطرفة من دعاة الزندقة والإلحاد والمجون، فقضي سني حداثته في الكوفة. فأول من ذمه في الشعر هو هارون الرشيد حيث يراه سبباً أساسياً لشهادة الإمام الرضا وقد غضب حين دفنوه أولاده جنب الإمام في طوس، فقال:

قبران في طوس خيرُ الناس كلهم ... وقبر شرّهم هذا من العبرِ

ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا ... علي الزكي بقرب الرجس من ضرر

هيهات كل امرئ رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ما شئت أو فذرِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٠٦)

وقد هجا دعبل الخليفة العباسي المأمون الذي تولّي الحكم بعد قتل أخيه الأمين وكذلك المعتصم حيث كان نصيب الخليفة المعتصم كبيراً من هجاء دعبل إذ يقول فيه:

بكى لشتات الدين مكتئب صبٌ ... وفاض بفرطِ الدمع من عينه غربُ

ولكن كما قال الذين تتابعوا ... من السلف الماضيين إذ عظم الخطبُ

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة ... كرامٌ إذا عدّوا وثامنهم كلبُ

وأني لأعلي كلبهم عنك رفعة ... لأنك ذو ذنب وليس له ذنب

كأنك إذ ملكتنا لشقائنا ... عجوزٌ عليه التاج والعقد والأتبُ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٠٢- ١٠٣)

وذمّ المعتصم العباسي وأرسل له عدّة أبيات يهجوه فيها ويهجو مدينة سرّت من رآها:

بغـــــداد دار الملـــــوك كانـــــت ... حـــــتى دهاهـــــا الـــــذي دهاهـــــا

مـــــا غـــــاب عنـــــها ســـــرور ملـــــك ... عـــــاد إلى بلـــــدةٍ ســـــواها

لـــــيس ســـــرور يســـــرّ مـــــن را ... بـــــل هـــــو بـــــؤس لمـــــن يراهـــــا

عجّـــــل ربي لهـــــا خرابـــــاً ... بـــــرغم أنـــــف الـــــذي ابتناهـــــا

(الدجيلي، ١٤٠٩: ٣٠٨)

هذا ما حدث من هجاء في حياة المعتصم. أما بعد وفاته فيودعه دعبل بهجاء ليس فيه رحمة وكذلك بهذا الهجاء يستقبل الخليفة الجديد (الواثق) وهو أبو جعفر هارون بن المعتصم أمه رومية، وبويع للخلافة في ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧ وهو ابن إحدى وثلاثين سنة وكان مولعاً بمجالس الطرب واللهو، كثير الأكل والشرب مات سنة ٢٣٢ في أواخر ذي الحجة(اليعقوبي، لا تا: ٣-٢١٦).

قـــــد قلـــــت إذ غيبـــــوه وانصـــــرفوا ... في شـــــرّ قـــــبر لشـــــرّ مـــــدفون

اذهـــــب إلى النـــــار والعـــــذاب فمـــــا ... خلتـــــك إلا مـــــن الشـــــياطين

مـــــا زلـــــت حـــــتى عقـــــدت بيعـــــة مَـــــن ... أضـــــرّ بالمســـــلمين والـــــدين

(الدجيلي، ١٤٠٩: ٢٩٩-٣٠٠)

نري في ما سبق من أبيات هجاء مدي تأثر شاعرنا بالعوامل الاجتماعية التي أثّرت علي نفسيته الغاضبة بالسبة لما حدث لأهل البيت و مواليهم وما شاهد من اعمال غير مرضية من قبل الحاكم العباسي.

هذه العوامل الإجتماعية، حيث يكون الشاعر الفذ في المجتمع منبوذاً، أو من يكون موالياً لأهل البيت مشرّداً ويري أهل البيت سبايا والمجاعة الجماعية والإعدامات بحق موالي علي ابن أبي طالب عليه السلام وهي نفس القوات والحوادث التاريخية التي أدّت إلى تكوين شخصية دعبل الخزاعي الغاضبة.

لاشك في أن النفس هي مصدر لكافة أعمال الإنسان وتصرفاته وأقواله بما فيه الشعر(سلوك الإنسان) أي كل ما يصدر عن الإنسان من سلوك يرجع إلى نفسيته وذاته. ((فالأدب هو جزء من ذلك السلوك فلا بد من وجود تأثير نفسي علي الأدب أو ترابط

بينهما إذ إن ((العلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات لأنه ليس هناك من ينكرها، وإنّ النفس تصنع الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس، والنفس التي تتلقي الحياة لتصنع الأدب))(اسماعيل، ١٩٨١: ١٣). وعلي الأظهر إن نفسية شاعرنا دعبل كانت شديدة السّخط علي الآخرين ناقماً علي المجتمع متشائماً منه، فهو يري أن الناس لا ينتفع بهم إلا بالقوة والقسوة فكان ينظر نظرة اعتدائية إلى الآخرين. كان دعبل يري أن كيانه وشهرته لا يمكن أن تبني بالمديح والتذلل للآخرين بل كان يراها تبني بالهجاء، وانّ تحقق شهرته وذياع صيته بين الآخرين يكون بواسطة الهجاء والسب والقذف. أضف إلى ذلك كان دعبل يعتبر هذا الغرض وسيلة يحيط بها نفسه وتجعل الآخرين يخشونه ويخافون سلاطة لسانه وفحش أقواله وبالتالي يقيه الناس ولا يتعرض له أحد. ايليا حاوي يري في أشعار دعبل شيئاً من السّخرية الداخلية التي تتولد من إختلال الأحوال في النفس، ويتولى العيوب البسيطة واليسيرة ويضيف إليها الكثير بواسطة الغلو والمبالغة حتى يجعلها تركيبة غريبة ويصورها ظريفاً(حاوي، ١٩٦٠: ١٥٢). فنري شيئاً من الصدق والسّخرية في أحوال ابن شكلة وهو ابراهيم بن المهدي عم المأمون حيث كان مغني وموسيقار، فقال فيه:

علمٌ وتحكيمٌ وشيبُ مفارقِ ... طلّسان ريعانَ الشباب الرائق

وإمارةٌ في دولةٍ مبعوثةٍ ... كانت علي اللذات اشعبُ عائقِ

فالآن لا أغدو، ولستُ برائحٍ ... في كبدِ معشوقٍ وذلةِ عاشقِ

نَعَرَ ابنُ شكلة بالعراق واهله ... فهفا إليهِ كلُّ أطلسَ مائقِ

إن كان ابراهيم مضطلعاً بها ... فلتصلحن من بعدهِ لمخارقِ

ولتصلحن من بعدِ ذاك لزلزلٍ ... ولتصلحن من بعدهِ للمارقِ

أني يكون وليس ذاك بكائن ... يرثُ الخلافة فاسق عن فاسق

(الدجيلي، ١٤٠٩: ٢٤٤-٢٤٥)

لقد كان دعبل علي الأظهر يعاني من نفسية قلقة ومضطربة وذلك واضح في شعره، فتارة يمدح وتارة أخرى يهجو الذي مدحه ويسلبه كل فضائله النفسية وصفاته الخَلقية والخُلقية، وهذا الإضطراب والقلق لم يكن علي مستوي شخص واحد مدحه ثم هجاه، بل

تكررت هذه الحالة علي عدة أو مجموعة أشخاص يمدحهم ثم بعد فترة يهجهم عليهم ويصوب إليهم سهام الهجاء التي لن تخطي من توجه نحوه.(الموسوي، ٢٠٠٦: ٨).

ومن أشعاره الإجتماعية التي تظهر مدي اهتمامه في الأمور الإسلامية وفي أمور الدولة ومعرفته بعدم كفؤ النظام الحاكم آنذاك نقده لـــ((المطلب بن عبدالله)) وإلى مصر بعد هزيمته في احدى المعارك فيقول:

تعلـــقُ مصـــر بـــك المخزيـــات ... وتبصـــقُ في وجهـــك الموصـــلُ

ويـــوم الســـراةِ تحسّـــيتها ... يطيـــب لـــدي مثلـــها الحنظـــلِ

توليـــت ركضـــاً وفيتاننـــا ... صـــدورُ القنـــا فـــيهم تعســـلُ

إذا الحـــربُ كنـــتُ أميـــراً لهـــا ... فحظهـــم منـــك أن يقتلـــوا

فمنـــك الـــرؤوسُ غـــداةَ اللقـــاء ... وممـــن يحاربـــك المنصـــل

شـــعارك في الحـــرب يـــوم الـــوغى ... إذا انهزمـــوا: عجّلـــوا عجّلـــوا

هزائمـــك الغـــرّ مشـــهورةٌ ... يقـــرطس فـــيمنّ ينضـــل

فأنـــت لأولهـــم آخـــرٌ ... وأنـــت لآخـــرهم أوّلُ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ٢٢٥)

وهكذا نري حقانية الشاعر لردع المجتمع الذي لا يأبه إلى دمار كل ما هو قد ابتناهُ الرسول والأئمة الأطهار والأولياء الصالحون ويري في نفوس اولئك الشرذمة شراً وشهوةً لا تشبع إلا بدماء الأبرياء وأنه يجب علي كل شاعرٍ ملتزم يعرف الأصول الأخلاقية وحقانية المذهب والأئمة الأطهار أن يندد بما هو صواب.

آليات الدفاع في شعر دعبل الخزاعي:

أوّل من أدخل مفهوم آليات الدفاع أو الحيل الدفاعية هو سيغموند فرويد، ويري أن الناس يلجأون إليها لحماية أنفسهم وتساعدهم علي معالجة الصراعات والإحباطات وهي أساليب عقلية لا شعورية تقوم بتشويه الخبرات وتزييف الأفكار والصراعات التي تمثل تهديداً وهي تساعد الناس علي خفض القلق حينما يواجهون معلومات تثير التهديد. لهذا نري شاعرنا حين يمدح شخصاً يسمي نوحاً:

لأشـــكرنّ لنُـــوحٍ فضـــل نعمتـــه شُـــكراً تصـــادر عنـــه ألســـنُ العـــرب

(الدجيلي،١٤٠٩: ١١٤)

وسرعان ما يندم من هذا المدح ويلتجئ إلى الذم التي كانت آليته للدفاع عن نفسه وعن مذهبه ومعتقداته، ((وربما أتخذ الشاعر من الهجاء وسيلة يحيط بها نفسه بالرهبة والخوف في عصر مضطرب تتصارع فيه الأهواء ويعترك الخير والشر في طباع أبنائه، وصار المرء لا يرد عنه السوء إلا لسان حاد أو من منصب خطير أو مال وفير))(التميمي، ٣٣). فيقول:

كأنـــه كـــبشٌ إذا مـــا بـــدا لكنـــهُ في طبعـــه نعجـــه

فأنـــتَ إن تقعـــدُ إلى جنبـــه تخـــالُ في خصـــيتيه قنجـــه

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٥٨)

أو يمدح بني خزاعه ويفتخر بها وينوه بفضلها ومزاياها فيقول:

إذا غزونـــا فمغزانـــا بـــانقرةُ وأهـل سـلمي بسـيف البحـر مـن جـرت

هيهـات هيهـات بـين المنزلـين لقـد أنضـيت شـوقي، وقـد طولـت ملتقـي

أحببـتُ قـومي، ولم أعـدل بحبـهم قـالوا: تعصـبت جهـلاً قـول ذي بهـتِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٥١)

وسرعان ما يندم علي هذا المديح ويهجو القبيلة بأكملها:

قـومي بنـو حميـرٍ والأزدِ أخـوتهم وآل كنـدةَ، وأحيـاء مـن عسـلةِ

ثبـت الالحلـوم، فـأن سـلّت حفـائظهم سـلوا السـيوف فـاردوا كـلّ ذي عنـتِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٥٤)

وفي هجاء آخر يقول:

اخزاعـة غـير الكـرام فاقصـروا وضـعوا عمـائمكم علـي الأفـواه

فـدعوا الفخـار فلسـتم مـن أهلـه يـوم الفخـار ففخـركم بشـياه

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٥١)

فخزاعة كانت ضحية لهذا الجانب النفسي اللامستقر في شخصية دعبل الخزاعي،

ويرى لا مدح الا في طريق العقيدة والمذهب. وهذه الأمور جعلت شاعرنا أن يتشائم من كل شيء وأن لايري شيئاً صالحاً للمديح؛ ((القلق وعدم الثقة في أي مرحلة من مراحل الحياة تفقد الإنسان الإعتقاد بوجود أمور طيبة وصالحة في الحياة)) (البلداوي، ١٩٨٠: ٣٧).

دعبل شاعر عصابي، وعبقري بما يريد، وذكي بما ينشد:

((اعتنى رانك بالرغبات المحورية في الإنسان وذهب إلى أن هناك ثلاثة أنواع من الشخصيات: ١- الشخصية العصابية أو نروتيك٢- الوسط أو المعتدلة ٣- الفنانة.)) (أحمديان، ١٣٩٣: ٨٢). العصابيون هم الذين لم يستطيعوا حل الصراعات الباطنية والمصالحة بين رغبتين. هؤلاء يحبون الإعتزال عن الآخرين. يبدو أن هؤلاء يتمتعون بالفردية والإستقلال لكن فرديتهم واستقلالهم مقترنة بالحقد والعداء والخوف وبعيدة عن الهدوء والحب. من صفات هؤلاء: الحقد والعداء، والشخصية السلبية، والعزلة والأزمة في علاقاتهم مع الآخرين والتكبر. فمشاهدة هذه الصفات لا تصعب في شخصية دعبل الخزاعي لهذا ظهرت كثيرة من هذه الأحوالات في شعره وكما شرحنا سابقاً كانت له أسباب وجيهة في كل هذه التغلبات:

التسامي والذات الشاعرة عند دعبل الخزاعي:

((آلية دفاعية يلجأ إليها الإنسان عندما تضيق عليه الأمور ويزداد التوتر بأعلى درجات الشدة، وهذه الحيلة الدفاعية من أهم الحيل وأفضلها، والأكثر انتشاراً، ويدل استخدامها علي الصحة النفسية العالية، فعن طريقها يستطيع الإنسان أن يرتفع بالسلوك العدواني المكبوت إلى فعل آخر مقبول إجتماعياً وشخصياً، فمثلاً النتاجات الفكرية والأدبية والشعرية والفنية... ما هي إلا مظاهر لأفعال ثم التسامي بها وإعلائها من دوافع ورغبات داخلية مكبوتة في النفس إلى أعمال مقبولة تجد الرضا من أفراد المجتمع)) (أحمديان، ١٣٩٣: ٦٧). ينقل أبو الفرج الأصفهاني خبراً عن دعبل نصه: أن دعبل نظر يوماً في المرآة فجعل يضحك! فقيل له: من أي شيء تضحك؟ قال: نظرت إلى وجهي في المرآة ورأيت هذه السلعة(الغدة أو الزيادة في البدن) عنفقته فذكرت قول الفاجر أبي سعد:

وسلعة سوءَ بهِ سلعة ظلمت أباه فسلم ينتصر

جرت مهاجاة عنيفة جداً بين أبي سعد قائل هذا البيت وبين دعبل تعدت حدود الشّتم والسبّ والقول الفاحش والمقذع))(الاصبهاني، ١٨-٥٥). فإذا صحّ خبر وجود هذه الغدة - لأن هناك من ينكرها - في جسم دعبل قد تكون أثرت بصورة مباشرة أو غير مباشرة علي نفسيته وكيانه الشخصي وربما جعلته يشعر بالنقص وعدم الإتزان وجعلته يندفع كل الإندفاع في سبيل الحصول علي التقدير والإحترام من قبل الآخرين في محاولة منه أن يشد إنتباه الناس إليه. فلجأ إلى استخدام لسانه كوسيلة تندر بالآخرين مما جعل أغلبهم يتقيه مخافة لسانه وسطوته الحادة لذلك ((إن حالة الشعور بالنقص حافز قوي للإنسان لأن يكيف حالة وذلك بأن يحاول إيجاد حل للمشكلة التي يشعر بالنقص إزاءها ولكن العيب في الحل أو اسلوب التعويض.(البلداوي، ١٩٨٠: ١٣). فيري نفسه الآمرة والناهية في كل شيء:

هي النفس ما حَسَّنَتهُ فمحسَّنٌ ... لَديها، وما قَبَّحَتهُ فمُقَبَّحُ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٦٢)

ويرى الوقار والزهد بعد الأربعين الحل الوحيد لنيل الآخرة برضى الله وبرضى النفس قائلاً:

الجهلُ بعد الأربعين قبيحُ ... فَزَع الفؤادَ وإن ثناهُ جُموحُ

وبع السفاهة بالوقارِ وبالنهي ... ثمنٌ لعمرُك إن فعلت ربيحُ

فلقد حدا بك حاديان إلى البِلي ... وَدَعاك داعٍ للرحيلِ فصيحُ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٦٣)

وقد أثبت العلم أن نمو الإنسان وكمال عقله لا يحدث إلا في نهاية الأربعينيات من عمر الإنسان. يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف/ ١٥). وهذه الشواهد حيث تظهر مدي إطلاع دعبل الخزاعي بمسيرته الشعرية حيث كان يعرف سن النضج واكتمال الحكمة والعقل.

وقال في المطل:

إيـــــاك والمطـــــلَ أن تفارقـــــه ... فإنّـــــهُ آفـــــةُ لِكـــــلِ يـــــدِ

إذا مَطِلـــــتَ امـــــرأً بحاجتـــــه ... فـــــامضِ علـــــي مطلـــــه ولا تحـــــد

فلســـــت تلقـــــاهُ شـــــاكراً ليـــــدٍ ... قـــــد كـــــدّها المطـــــلُ آخـــــرَ الأبـــــدِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٧٨)

الإغتراب:

إذا لاحظنا ودققنا في مفهوم الإغتراب لوجدنا مفهوم الإغتراب يشير إلى الحالات التي تتعرض فيها وحدة الشخصية للإنشطار، أو للضعف والإنهيار، بتأثير العمليات الثقافية والإجتماعية التي تتمّ في داخلها أو في داخل المجتمع؛ ولكن سيصبح الإغتراب دواء لداء من مجتمع بناه أشرار وشرذمة سفاحة تحب الدماء، فنري شاعرنا المناضل يمدح الأسفار:

وَيـــك إنَّ القُعـــودَ يلعـــبُ بالقُعـــــ ... دُدِ لعـــــبَ الريـــــاحِ بالبوغـــــاء

كـــــذب الزاعمـــــون إنَّ دواء الـــــ ... هَـــــمّ قُـــــربُ الخريـــــدة الحســـــناء

(الدجيلي، ١٤٠٩: ٩٦)

ومن ثمّ يفصح عن همومه وعن أحواله المنقلبة في الجو الخانق آنذاك:

ومـــــا دواء الهمـــــوم إلا المهـــــاري ... تُعتلـــــي في التنوفـــــة الملســـــاء

(الدجيلي، ١٤٠٩: ٩٦)

وعندما يتذكر غربة الإمام الرضا علي بن موسى عليه السلام، وكيفية استشهاده في أرض الغربة يتحسّر قائلاً:

يـــــا حســـــرة تتـــــردّد ... وعـــــبرةً لـــــيسَ تنفـــــد

علـــــي علـــــيّ بـــــنِ موســـــى ... بـــــنِ جعفـــــرِ بـــــن محمـــــد

قَضَـــــي غريبـــــاً بطـــــوسٍ ... مثـــــل الحُســـــام المجـــــرد

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٨٥)

وحين يتذكر ما فعلت بنو العبّاس بآل المصطفى وتشردهم واغترابهم يقول:

لا أضحك اللهُ سِنَّ الدهرِ إن ضحكت ... وآلُ أحمدَ مظلومون قد قُهروا

مُشَرّدونَ نُفوا عن عُقرِ دارهم ... كأنهم قد جَنوا ما ليس يغتفرُ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٨٦)

ويذكر في احدى قصائده الشهيرة ما أصاب آل البيت من مصائب ويذكر الإمام الرضا عليه السلام:

تأسّفت جارتي لمّا رأت زَوَري ... وعدّتِ الشيبَ ذنباً غير مغتفرِ

ترجو الصبا بعدما شابَت ذوائبها ... وقد جرت طلقاً في حَلبة الكبر

أجارتي! إنَّ الشيب نَغَّصني ... ذِكرَ الغواني، وأرضاني من القدرِ

لوكنت أركنُ للدنيا وزينتها ... إذن بكيتُ على الماضينَ من نفري

أخلي الزمانُ علي أهلي فصدّعهم ... تصدعَ الشعبِ لاقَي صدمة الحجرِ

بعضٌ أقامَ، وبعضٌ قد أهاب بهِ ... داعي المنية، والباقي على الأثرِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٩٥)

ومن أسباب أزمة الهوية هجرة الإنسان من وطنه إلى مكان آخر. وطنه الذي يحتضن ثقافة ومعتقدات قد تختلف عمّا في الغربة، يقول محمدرضا شرفي: ((تنقّل البشر في مواطن جديدة يضعّف علاقته بهويته الأصيلة، وكسب الهوية الجديدة يستغرق وقتا طويلاً)) (أحمديان، ١٣٩٣: ٥٤)، أحياناً تكون الهجرة جبرية وفي هذا الحال يضطرّ الشخص إلى جلاء الوطن وفي هذه الأبيات نري الهجرة الجبرية حيث أجبرَ الإمام الرضا عليه السلام ترك الوطن والعيش في طوس. ولا ننسى هذه بركة من الله تعالي لأهالي طوس ويقصد هذا المقال أن يعالج النص من ناحية أدبية فحسب.

قضى شاعرنا سنّي حداثته في الكوفة والمعروف عن دعبل أنّه كان كثير السّفر والترحال والتنقل من بيئة إلى أخرى أما بتأثير العامل السياسي والمطاردة من قبل السلطات العباسية أو ربما إنه كان يحب السفر والتنقل. وإن هذا السفر الكثير ساعده علي التعرف علي مناسبات كثيرة وعلي مواقف جديدة ومختلفة جعلته يهجو أغلب هذه المواقف التي لا يروق له إما استهزاءً أو نقداً إذ ((يؤدّي الهجاء عملاً مفيداً إجتماعياً وأخلاقياً وذا قيمة)) فكان

هجاء دعبل لغرض إصلاح هذه المواقف الإجتماعية. (الموسوي، ١٥-١٦).

لقد أثر الإحساس بفقدان الهوية العربية تأثيراً كبيراً علي شعر دعبل الخزاعي إذ يري نفسه طريداً شريداً في مجتمع بعكس الموالين الذين ينعمون بالإستقرار، فوجّه دعبل نقده الشديد لهذه الحالة بصورة مباشرة بقصد إصلاح هذا الأمر الذي أتخذه الخلفاء. (وديعة طه، ١٩٧٧: ٤-٧٩). فهو يقول نقداً موجّه إلى المعتصم:

لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم ... وصيف وأشناس وقد عظم الكرب

وفضل بن مروان سيثلم ثلمة ... يظل لها الإسلام ليس له شعب

وهمك تركي عليه مهابة ... فأنت له أم وأنت له أب

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٠٣)

شكوى دعبل وحنينه إلى ماضٍ قريب:

الحنين هو الرمز الرئيسي إلى الوقوف بزاوية بعيدة دون أن يكدّر خاطره أحد ومن ثمّ يقيس الوضع الحالي بالوضع القبلي فيري المقاييس تنكب إلى الوراء؛ هذا حال دعبل الخزاعي بعد الإحباط المكون في المجتمع العباسي وظلمهم إياه:

وقد كان مشربنا صافياً ... زماناً، فقد كدر المشربُ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٠٠)

ويرمز في هذا البيت إلى إنهيار المجتمع الإسلامي علي أيدي الدولة العباسية السفاكة وسقيهم للمجتمع بأفكارٍ سامّة ونبذهم لأهل البيت عليهم آلاف التحية والسلام:

وكنّا نزعنا إلى مذهبٍ ... فَسيحٍ، فضاقَ بنا المذهبُ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٠٠)

ويرى في الحب حنيناً يرجع به إلى الصبا، ويشكو همه إلى نفسه حيث يقول:

خبرتُ الهوي حتى عرفتُ أموره ... وجرّبته في السرّ منهُ وفي الجهرِ

فلا البُعدُ يسليني ولا القرب نافعي ... وفي الطمعِ الإدواء واليأس لايبري

(الدجيلي، ١٤٠٩: ٢٠٠)

التشاؤم في شعر دعبل الخزاعي:

وكان يتشاءم بعلاقات الناس ويري في ضحكتهم كذباً وفي معانقتهم نفاقاً؛ ويروي الدجيلي من دعبل قصة حيث قيل له: ما الوحشة عندك؟ فقال: النظر إلى الناس ثم قال:

ما أكثرَ الناسَ لا بَل ما أقلّهُم ... اللّهُ يعلمُ أنّي لَم أقُل فَنَدا

إنّي لأفتحُ عيني حينَ أفتحها ... على كثيرٍ ولكن لا أرَي أحدا

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٧٢-١٧٣)

وهكذا كانت هذه الدوافع قد أثارت حفيظة دعبل وشاعريته وأدت إلى حدوث ثورة نفسية وشعرية علي الآخرين، فلجأ شاعرنا إلى اسلوبه ودوافعه النفسية كأسلوب للتعبير عن معاناته والمعارضة والإحتجاج. وعندما عرض دعبل إلى صالح بن عطية الأضجم حاجة فقصر عنها ولم يبلغ ما أحبّه دعبل، فندم علي ما طلب من هذا الشخص وقد كان يعرف يرد طلبه فأزداد تشاؤماً بالناس حتى قال:

أحسنَ ما في صالحٍ وجههُ ... فقِس علي الغائب بالشاهدِ

تأمّلت عيني له خِلقةً ... تَدعو إلى تزنية الوالدِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٨٣)

وقال في اختبار الناس:

قد بلوتُ الناسَ طُرًّا ... لَم أجد في الناسِ حُرّاً

صارَ أحلَي الناسِ في العينِ ... إذا ما ذيقَ مُرّاً

(الخزاعي، ١٤٠٩: ١٩٠)

وكان دعبل لا يستطيع أن يكظم غيظه من اولئك المنافقين الذين يعيشون علي رغيف من الإذلال فيتشاءم في طريقة الصداقة ويصفهم بأبناء الطريق:

عدوٌ راحَ في ثوب الصديق ... شريك في الصبوحِ وفي الغبوقِ

يسرك مقبلاً ويسوء غيباً ... كذاك يكون أبناء الطريقِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ٣٤٧)

وهناك الكثير من الصفات غير الحميدة التي انتقدها دعبل بصورة مباشرة وتشاءم من أناسها وظهر كرهه لأولئك الذين كانوا من ذوي المنافقين، والصفات التي انتقدها سيما قلة الأمان، وضعف علاقات الجوار، وعدم الوفاء بالعهد، وقلّة الأصدقاء المخلصين وعدم إكرام الضيف وقد رتّبها السيد محسن الأمين في تحقيقه وشرحه لديوان دعبل الخزاعي، ففي تشاؤمه من الغد يقول:

خليلي ماذا أرتجي من غدٍ امرئ ... طوي الكشح عني اليوم وهو مكين

وأن امرءاً قد ضنّ منه بمنطق ... يسد به فقر امرئ لضنين

(الأمين، ١٣٦٨: ١٠١-١٠٢)

الإتجاه العاطفي وآلية الإبداع:

على الرغم من تباينن آراء الباحثين في شأن البواعث والدوافع التي تحمل الفنان علي إبداع عمله الفني وإبرازه إلى الحياة لكن ما يكاد يحظى بشبه إجماع منها هو أن الفن في أساسه انفعال يحمل صاحبه علي التعبير عنه، وهذا الأمر يزداد أهمية في فن الشعر كونه الأقرب إلى الطبيعة الشعورية والأحاسيس الوجدانية، فالشعر في أبسط تعريفاته هو آت من الشعور.(عبدالله، ٢٠١٥: ٥) يعد الشاعر دعبل الخزاعي من الشعراء الذين طفحت علي أدائهم الشعري عاطفة متوهجة، وما يميز هذا العاطفة أيضاً أنها جاءت في نسيج شعري كان الشاعر يعبر به عن آراء وأفكار تجسد انتماءه ووجهات نظره في الدين والسياسة والخلافة...وما إلى ذلك. وفي مقايسة بين الكميت بن زيد الأسدي ودعبل الخزاعي يقول ستار عبدالله:((فإذا كان الكميت حين سلك مسلك الإحتجاج قد أثري مضمون التشيع فكرا وعقلاً؛ فقد أثرت مضامين التشيع عند دعبل الأدب عاطفة وروحاً))(عبدالله، ٢٠١٥: ٥-٦). ((فخرجت صورة ناطقة بما يجول في نفسه وفي عاطفته وسجلا خالدا لحياته وعقيدته وصورة رائعة لما حل بآل البيت من محن وما نزل بساحتهم من نكبات، في رصانة عبارة، وجزالة لفظ، وإحكام نسج وصدق أداء)) (الجاحظ،١٩٨٥: ١-٤٥) وهذا التدفق في الإحساس جعل رثائياته في أهل البيت بمثابة أنغام حزينة تثير العاطفة وتسكب الدموع. والأمثلة الشعرية التي تعج بالعاطفة والوجدان في شعر دعبل الخزاعي كثيرة ومنها علي سبيل المثال هذه الأبيات في سيد الشهداء الحسين عليه السلام:

يـــا واقفـــاً يبكـــي الطلـــول وينشـــد ... إن كنـــت محزونـــاً فـــم لـــك ترقـــدُ؟
هـــلا بكيـــت عـــن الحســـين وأهلـــه ... لتضعضـــع الإســـلام يـــوم مصـــابه
فلقـــد بكتـــه في الســـماء ملائـــك ... بـــالله تهـــت وغـــاب عنـــك المرشـــد
هـــلا بكيـــت لمـــن بكـــاه محمـــد؟ ... إن البكـــاء لمثلـــهم قـــد يحمـــدُ

(عبدالله، ٢٠١٥: ٦)

وقد اتخذت هذه الأبيات من عاطفة البكاء مرتكزاً رئيساً لها بدءاً من مطلعها الذي يعنف فيه الشاعر شخصا واقفاً يبكي الطلل ويطالبه أن يدع الطلل ويأتي إلى من يستأهل الحزن والبكاء؛ كيف لا وقد بكاه من قبل سيد الكائنات الرسول الأكرم محمد ﷺ بل بكته ملائكة السماء ويؤكد الشاعر أن القيم كلها قد بكت الحسين عليه السلام. وينادي الرسول الأعظم بمصاب كربلاء ويجعل من العطش رمزاً للمظلومية وسكب الأدمع:

يـــا جـــدُّ قـــد مُنعـــوا الفـــرات وقُتلـــوا ... عطشـــاً فلـــيس لهـــم هنالـــك مـــورد
يـــا جـــدُّ مـــن ثُكلـــي وطـــول مصـــيبتي ... ولمـــا أعانيـــه أقـــوم وأقعـــد
يـــا جـــدُّ ذا نحـــر الحســـين مضـــرج ... بالـــدم والجســـم الشـــريف مجـــرد
يـــا جـــد ذا صـــدر الحســـين مرضـــض ... والخيـــل تـــنزل مـــن عليـــه وتصـــعدُ
يـــا جـــدّ ذا نجـــل الحســـين معلـــلُ ... ومغلـــل في قيـــده ومصـــفّد

(عبدالله، ٢٠١٥: ٨)

وقد لاحظنا أسلوب النداء الذي تكرر في ستّة أبيات متتالية قد أسهم في إثراء الزخم العاطفي الذي كان الشاعر بصدد الإعراب عنه؛ لأن النداء من الأساليب التي تسهم في الإفضاء عن الوجدان. وقد اتخذ من الدمع رمزاً لمظلومية آل المصطفى وكثيراً ما استعمل هذه المفردة في أشعاره حيث تظهر روحه الحزينة وذاته المشبعة بالهم والغم فيقول:

بكيـــتُ لرســـمِ الـــدارِ مـــن عرفـــات ... وأذريـــتُ دمـــع العـــينِ بـــالعبراتِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٣١)

ســـأبكيهم مـــا ذرَّ في الأرض شـــارقٌ ... ونـــادى مُنـــادي الخـــيرِ بالصـــلواتِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٤٢)

سـأبكيهم مـا حـجَّ للّٰهِ راكـبٌ ... ومـا نـاح قمـري علـي الشـجراتِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٤٦)

ويعبّر عن حُزنه وألمه قائلاً:

وفي مواليـك للمحـزون مَشـغلةٌ ... مِـن أن تبيـتَ لمفقـودٍ عَلَـي أثـرِ

كـم مـن ذراعٍ لهـم بـالطفِّ بائنـة ... وعـارض مـن صـعيد التُـربِ مُنعفـرِ

(الدجيلي، ١٤٠٩: ١٩٦)

عقدة النقص وبلاغة دعبل الخزاعي:

عندما نظر فرويد حول الجنس وأهميته في تكوين شخصية المرء؛ إختلف معه آدلر واعتبر ((عقدة النقص مصدر الحالات النفسية عند الإنسان. أي إنَّ الطفل والمراهق يحسّان بالحقارة فيبذلان قصاري جهدهما ليتداركا هذا النقص وليتغلّبا عليه)) (أحمديان، ١٣٩٣: ٨٦). وكما يعتقد آدلر أن هناك علاقة بين الشعور بالنقص وبين التخييل وأغلب الكشفيات التقنية هي ردود أفعال من كانوا يشعرون بالنقص تجاه عوامل إحباطهم مثل اركتونيوس الذي كان فالجا فاخترع العربة. ومن جهة أخرى إنَّ كثيراً من الإبداعات الفنية البارزة بنيت علي نوع من التعويض النفسي. ينقل لنا أبو الفرج الإصبهاني حكاية جرت بين دعبل وأبي سعد وقد سخر منه أبو سعد بسبب الغدة التي كانت في وجهه حيث كانت بارزة في بيتٍ ذكره في كتابه الأغاني:

وسـلعة سـوء بـهِ سـلعة ... ظلمـت أبـاه فسـلم ينتصـر

(الإصبهاني، ١٨-٥٥)

يذكر ((أن دعبل نظر يوماً في المِرآة فجعل يضحك! فقيل له: من أي شيء تضحك يا دعبل؟ فردّ علي السائل: نظرت إلى وجهي في المِرآة ورأيت هذه السلعة -وكان يقصد من السلعة الغدة أو الزيادة في الوجه وكانت علي أنفه- فذكرت قول الفاجر أبي سعد حيث يقول: وسلعة سوء به سلعة-ظلمت أباه فسلم ينتصر)) (الاصبهاني، ١٨-٥٥). وبين أبي سعد قائل هذا البيت وبين دعبل جرت مهاجاة عنيفة جداً تعدت حدود الشتم والسبّ والقول الفاحش؛ ((وقد أثرت بصورة مباشرة علي نفسية دعبل الخزاعي وكيانه الشخصي

وربما جعلته يشعر بعقدة النقص وعدم الإتزان وجعلته يندفع كل الإندفاع في سبيل الحصول على التقدير والإحترام من قبل الآخرين في محاولة منه أن يشد انتباه الناس إليه. فلجأ إلى استخدام لسانه كوسيلة تندر بالآخرين مما جعل أغلبهم يتقيه مخافة لسانه وسطوته الحادة لذلك.)) (الموسوي، ٢٠٠٥: ٨-٧) ولأسباب هذا المنظر كان يسخر منه الآخرون ويستهزؤون به. فشاعرنا هذا أصيب بعقدة النقص بسببين: العامل الجسمي (الغدة في وجهه) والعامل الإجتماعي (إدبار المجتمع العباسي عنه وإحباطه في المجتمع والتشتّت لآل المصطفى) فقام بالبحث عن طريق يعوّض عن هذه النقائص. فاحترف الشعر وبدأ ينشد الشعر منذ صباه حتى أصبح من أكبر شعراء العصر العباسي وقصيدته التائية تبين مقدرته في الشعر.

نتائج البحث:

لا يمكن لناقد منصف أن يقبل بالتُهم والنقائض التي لُقّبَت بشاعرنا الملتزم دعبل الخزاعي حيث إذا أمعنّا النظر في أوّل من هجاه دعبل من الخلفاء سوف نري هارون الرشيد وذلك بعد شهادة الإمام الرضا عليه السلام في طريق عودته مع المأمون إلى بغداد فدفنه الخليفة المأمون إلى جوار أبيه الرشيد، وقد وقع هجاء الرشيد بعد موته لأن الإمام الرضا عليه السلام توفي في زمن المأمون وقد أثارت هذه الحادثة ثائرة دعبل وقد أثرت علي شخصيته ونفسيته فجعلته مولعاً بالكره والضغينة تجاه اولئك الحكام الفجرة؛ ولاشك أن العوامل الأساسية في تكوين شخصية دعبل الخزاعي هي عوامل وراثية، وبيئية، والتعلم، والوالدين ونمو الوعي واللاوعي كما أنّ كل منظّر يعتقد بأنّ شخصية الإنسان تتأثّر بالبيئة الإجتماعية، ووفقاً لنظرية أريك فروم حيث كان يعتقد أن الإنسان يتأثر بالحوادث التاريخية الواسعة لاسيما المجتمع الذي يبني هذه الشخصية؛ وقد كانت أشعار دعبل الخزاعي متناسقة مع متطلبات ذلك العصر، وإذا اعتقدنا بأنّ دعبل الخزاعي كان يملك العصبية لعقيدته لأنه لم يستطع حل الصراعات الباطنية والمصالحة بين رغبتين رئيستين فالتجأ إلى الإعتزال عن الآخرين، لأنه لم يستطع التملق للحكام والتخلّي عن عقيدته، ولو كان يتصرف دعبل الخزاعي مع الناس بتعاطف لكان بإمكانه أن يجلب محبتهم بسبب ولائه وغريزته الشعرية وشجاعته وبسالته وعدم نفاقه وإيمانه ويجلب احترامهم لذكائه وعبقريته. ومن آليات الدفاع هي التي استخدمها دعبل الخزاعي للتعويض ولتغطية فشله الشخصي وفشله الإجتماعي أو لتغطية عيبه - أو ما تسمّي بالغدة وكانت في وجهه-، فآلية الدفاع عبارة عن أساليب غير إرادية

نابعة من اللاشعور والتعقل للحد من الإضطراب وحفظ الشخصية، فكانت آلية دعبل الخزاعي للدفاع عن نفسه وعن معتقداته هي أن يهجو كل من سلب حقاً من محروم أو ظلم مظلوماً؛ يهجوهم بالشعر وكان لا يعرف السلام مع اولئك المتزمتين الذين كانوا بالأمس أعداء الإسلام واليوم خلفاءه؛ وكان التشاؤم حصيلة إحباطه، ومن خلال هذه الدراسة استطاع الباحث أن يغوص في أعماق العمل الفني للشاعر الملتزم دعبل الخزاعي والكشف عن نفسياته ويجب أن لا نتجاهل الجانب الفني لآثار دعبل الخزاعي حيث انها مليئة بالمفاجئات والإختيارات ويجب الكشف عنها بنقد شكلاني بحت.

قائمة المصادر والمراجع

١- الأثري، محمد بهجت: الأساس في تاريخ الأدب العربي، الطبعة الرابعة مطبع العاني، بغداد/العراق؛ ١٩٥٨.

٢- أحمد، مختار عمر: علم الدلالة. ط:٥ القاهرة: عالم الكتاب .١٩٨٨

٣- أحمديان، حميد: مناهج النقد الأدبي العربي المعاصر، ناشر دانشگاه اصفهان، سازمان مطالعه وتدوين كتب علوم انساني دانشگاهها(سمت)، مركز تحقيق وتوسعهي علوم انساني، اصفهان/ايران: ١٣٩٣.

٤- اسماعيل، عزالدين: التفسير النفسي للأدب، الطبعة الرابعة، دار العودة بيروت/لبنان، ١٩٨١.

٥- الأمين، السيد محسن: تحقيق وشرح ديوان دعبل الخزاعي، الطبعة الأولى مطبعة الإتقان، دمشق /سوريا، ١٣٦٨هـ.

٦- البدوي، أحمد: أسس النقد الأدبي عند العرب، مطبعة نهضة مصر، جمهورية مصر العربية، ١٩٦٠.

٧- البلداوي، عباس مهدي: العقدة النفسية والشعور بالنقص: الطبعة الثانية مطبعة الزهراء بغداد/العراق، ١٩٧٨.

٨- الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال .١٩٨٥

٩- حاوي، ايليا: فن الهجاء، الطبعة الأولى، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت/لبنان ١٩٦٠.

١٠- دارابي، جعفر: نظريههاي روانشناسي شخصيت، ط١، منشورات آييژ، سمت، تهران، ١٣٨٤ش.

١١- الدجيلي، عبد الصاحب عمران: ديوان دعبل بن علي الخزاعي، الطبعة الثانية دار الكتاب العربي، بيروت/لبنان، ١٩٧٢.

١٢- دعبل الخزاعي/ عبد الصاحب عمران الدجيلي/ الطبعة الثانية عام ١٤٠٩ منشورات الشريف الرضي، قم / ايران.

١٣- رشيد التميمي، قحطان: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري - دار المسيرة الطبعة الأولى (ب،ت) بيروت/لبنان.

١٤- الموسوي، نجم عبدالله، وأحمد صبيح الأنصاري: غرض الهجاء في شعر دعبل بن علي الخزاعي، ٢٠٠٥، كلية التربية- جامعة ميسان.

١٥- اليعقوبي، ابن واضح: تاريخ اليعقوبي، الطبعة الثانية (لات) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت/لبنان.